



خطاب صاحب الجلالة

بمناسبة مرور أربعة عشر قرناً على نزول القرآن الكريم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله

أيها المسلمون :

في مثل هذا الليلة المباركة السعيدة، منذ أربعة عشر قرناً، وصل الله الأرض بالملأ الأعلى، فنزلت الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر، وبدأ الحق سبحانه يوحى إلى نبيه المصطفى المختار، آيات قرآنه، ومعجز بيانه، مبشراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، فكان هذا الحدث العظيم، الذي تحتفل به الشعوب المؤمنة بالاسلام، مطمئنة بثلج اليقين المتمسكة بهدى المبين، احتفالاً يصل الحاضر بالماضي، ويؤكد الدلالة على رسوخ العقيدة، ويصدق قوله تعالى : «إنا نحن نزلنا الذكر وأنا له لحافظون» وإذا كان احتفال المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها بهذه الذكرى، يرمز إلى بقاء هذه الصلة واستحكامها، وإلى تمكن العقيدة الاسلامية من نفوس المسلمين الأوفياء لدينهم المخلصين للمبادئ السامية، والقيم المثلى التي شرعها هذا الدين الخنيف وإلى خلود الذكر الحكيم ودوامه أبد الآبدين، فإنه بالإضافة إلى هذا كله برهان على ما للمسلمين كافة والمؤمنين أجمعين من إدراك لعظمة الحدث الذي فرق بين عهدين، وفصل بين عصرين، وأقام بنيان الدنيا على أساس جديد، وخلق من الأجداد ما هو مؤثر ومديد.

لقد نزل القرآن الكريم، على النبي العظيم، فأشرق النور مبدداً للظلام وانتصر العلم على الجهل وتبين الرشيد من الغي، والهدى من الضلال، والعدل من البغي، وكان للدعوة الاسلامية التي أطاحت بالأوضاع المدخولة، وقومت الاعوجاج والزيف، واستأصلت الفساد، وقوضت أركان الطغيان، كان لها الدوى الذي تجاوز حدود الجزيرة العربية إلى ما حوّلها، والأثر البالغ الذي امتد إلى أقطار وأقطار، وسرى في شعوب وشعوب، فانتشر الاسلام وشاع، ونبه شأن المسلمين وهبت ريحهم وطار صيتهم وذاع، فلم يلبث وجه المعمور بما كان لهذه الدعوة السامية والرسالة الخالدة من مفعول ومضاعفات وتحولات، أن تبدلت ملامحه، وتجددت سيماه وتقاسيمه، فبرزت الدنيا في ثوب غض قشيب، وأهاب ناضر عجيب، ولم تمض إلا أعوام معدودة على إتمام الدعوة والتبليغ، وكال الوحي والتنزيل، حتى أعلا الله كلمة الاسلام والمسلمين، وفتح فتحه المبين، ومكن للمؤمنين في طول الأرض وعرضها، فخلقت الدولة الاسلامية الناشئة دولاً كان لها قبل انتشار الاسلام شأن في الدنيا عظيم، وجاه واسع، وكلمة مسموعة، وأمر نافذ مطاع، فامتدت بامتداد الدعوة المحمدية أسباب سلم إسلامية، دعائمها أمثل المبادئ، وأسمى القيم، وأفضل المقاصد والأهداف، وقامت على تعاليم الدين الخنيف أركان حضارة، أضاءت بنورها أرجاء الشرق والغرب ووثبت بالانسانية الوثبة الميمونة نحو الرقي والازدهار في مختلف الميادين وجميع المجالات، لارتكازها على العدل والحرية والمساواة ولا تقطاع المسلمين على اختلاف أجناسهم وتعدد أنسابهم إلى الاستيعاب والتفكير والابتكار والتصنيف، والتأليف والتعليم والتلقين والتثقيف.

ومضى على الانسانية ردح من الدهر سارت طواله في ظلال القرآن، وتحت راية الاسلام، سيراً ثابتاً موفقاً، وخطت فيه خطوات رشيدة مسددة، وأفادت خلاله الفوائد الصالحة الجمّة وكسبت في أثنائه المكاسب



الجميلة الغزيرة، بيد أن المسلمين أتى عليهم حين من الدهر، تداعت في نفوسهم فضائل الايمان، وتضاءلت في قلوبهم محاسن الاسلام، وغابت عن أذهانهم وعقولهم تلك المبادئ والقيم التي صلاح بها أولهم، فأخذ ذلك البيان الشايع الذي أقامته الأجيال الصالحة يتصدع شيئاً فشيئاً، وينهار يوماً على يوم، وتفرقت كلمتهم بعد اجتماع، فتبدد شملهم بعد ائتلاف واتحاد، وتقاسمتهم الأهواء، فانقسموا، وغلبت عليهم الشهوات، فغلبوا، وتوانوا وتواكلوا، ووهنوا وضعفوا واستكانوا، فخفت صوته، وخبا نورهم، وتقلص سلطانهم، وأدبرت دولتهم، وانحسر ما كان لهم من جاه ممدود، ونفوذ محمود، وانتقل ما كان لهم من شأن إلى غيرهم، وغدا ما كان لهم من قول مسموع، صادراً عن ألسنة من ناصبهم العداء، وأخذوهم بالبأساء والضراء حتى أهانهم من كان زمناً طويلاً غفلاً بين الأمم غير موسوم، وخاملاً غير ملحوظ ولا معلوم، وأصبحوا فريسة لأطماع الطامعين، ولقمة سائغة للغزاة المتربصين وبقي أمرهم على هذه الحال يعانون مرارة التفریط والتقصير، ويكابدون زمناً آلام العار والشنار، إلى أن قيس الله للأمة الإسلامية من استشار هممها، ودلها على الصراط المستقيم وأهاب بها إلى سلوك النهج القويم، ودعاها إلى استقبال ما استدبرته من أمر، وبعث في نفوسها الأمل، وأعاد إليها الثقة المفقودة، وحرك في قلوبها الايمان بالحق الضائع، وذكرها بالواجب المفروض فتحركت حيثما وجدت بقية من صلاح، والفيت جنوة من عزم واستقر نصيب من حب في فك الأغلال، وحظ من رغبة في التخلص من القيود والآصار، فلم تلبث التضحيات المبذولة هنا وهناك، والمسااعي الحميدة في هذا القطر وذلك، أن آتت ثمارها المنشودة، وأسفرت عن نتائجها المحتومة، إلا أن الاستعمار لم يلق عصا التسيار، ولم يقنع من الغنيمة بالاياب. فأخذ يتقنع كل يوم بقناع ويتلون كل آونة بلون، ويكتسي حسب الظروف والأحوال كل حين بلباس، وفات المسلمين الذين استرجعوا ما سلبوا من حق، واستعادوا ما فقدوا من حرية، أن يواجهوا هذه المعركة الجديدة بقلب واحد، وإيمان جامع، واتحاد شامل، وعزيمة ماضية، لا سبيل إلى تفتيتها، وقوة شكيمة لا مجال لتشتيتها فسلكوا الطريق الهين اليسير، بدلا من سلوك النهج العسير، ولم يحكموا عقولهم وبصائرهم، ولم ينظروا في عواقب أمورهم النظر البعيد على الرغم من محاولة إيجاد تألف بينهم وتضامن، وأورث الخلاف بينهم الضغائن والأحقاد والاحن، وخلف الحزازات، وأوغر الصدور.

ثم كانت النكبة التي لم يكونوا لها متوقعين، ولا لمصابها منتظرين، فامتحنوا امتحاناً غير يسير، وانتهكت الحرمات المقدسة، وحل بديارهم الشقاء والبلوى، وضامهم من لا عهد له ولا ذمام ولا ضمير بعدما اهدرت القيم المتواضع عليها ايما اهدار، وداس المبادئ المتفق عليها كل متفطرس جبار، وها هم العرب كافة، والمسلمون قاطبة يعانون من ويلات هذه النكبة ما يذيب القلوب كمدا ويفتت الأكباد لوعة وألماً لا نصير لهم إلا الله اللطيف بعباده، ولا ظهير لهم إلا أن يتمسكوا بالعقيدة المثلى، والايمان الصادق، ويأخذوا بالمبادئ ويتشبثوا بالقيم التي جعلت منهم خير أمة أخرجت للناس «وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات، ليستخلفنهم في الأرض، كما استخلف الذين من قبلهم. وليمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً».

فإذا آمن المسلمون، واتقوا وعملوا الصالحات، واجتنبوا ما نهوا عنه، وخلصت نياتهم، وسلمت طواياهم، وصحت عزائمهم، فإن من يتق الله يجعل له من أمره يسراً، وإن الله لا يخلف ما وعد به عباده العاملين للصالحات، والمؤمنين بما أوحى إلى نبيه الأمين من آيات بينات، سور محكمات، فكلما اجتمعت كلمة المسلمين على التقوى وصفت قلوبهم، واستهدفوا الخير والعمل والصلاح، كان الله من ورائهم ظهيراً، ومعيناً ونصيراً، وبلغوا أسنى الدرجات، وأجمل المقاصد والغايات، وكلما تفرقوا شيعاً، وذهبوا طرائق قدداً، وخذل بعضهم بعضاً، وتنكروا للمبادئ القومية التي قام على دعائمها صرح نهضتهم المنيف، وشاخ مجدهم التليد، وجد العدو المتربص بهم



الدوائر إلى صفوفهم مدخلا، وإلى قلوبهم سيلا، والب بعضهم على بعض، وأحدث بينهم العداوة والبغضاء، والشقاق والشحناء، وأضعف قواهم، وفل غرب عزائمهم وصرفهم عن المقاصد والأغراض التي تستهوي النفوس الآبية، والعقول المتبصرة.

وتفادياً لاتساع الخرق ودرءاً للمكاره وحفظاً للكيان وصوناً للكرامة، وإمسكاً للمقاليد والزمَام. وانتصاراً على الخن والشدائد، فإن علينا أن نرجع إلى أنفسنا محاسبين، ونتناول بالنقد والتحجيص ما نأتي من الأمور وما نذر، وما نبديء فيه ونعيد، حتى لا يصدر عنا من الأعمال والأقوال ما يشين سلوكنا وتصرفاتنا من النقائص والعيوب التي ينكرها الاسلام، ويدينها محكم التنزيل والفرقان، فإن من شأن هذه النقائص والعيوب، ان تعرضنا لصروف الدهر وغيره، وفواجعه وأزماته.

وإننا لنستعيز بالله في هذه الليلة المباركة التي هي سلام حتى مطلع الفجر، وفي هذا الاحتفال بأعظم حدث وأسماء، وأجله وأسنائه، من كل نعمة يتلوها بطر، ومن كل جاه محفوف بمكروه غير مقرون بتبصر وحسن نظر، ولقد أوضح لنا الله في كتابه المبين، الطريق السوي والنهج اللاحب : (وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون).

فاللهم إنا نعوذ بعزتك — لا إله إلا أنت — ان تضلنا ونسألك الهدى والتقى، ونستهديك لارشاد أمرنا ونستجريك من شر نفوسنا، اللهم لا تجعلنا فتنة للذين كفروا، واغفر لنا ربنا إنك أنت العزيز الحكيم، اللهم إن عبادك الضالعين إليك المبتلين إلى كرمك وجودك وعظمتك وجلالك في هذه الليلة الغراء التي شرفتها وخلدتها وجعلتها خيراً من ألف شهر، يسألونك الصلاح والرشاد، ويستوهبونك التوفيق والسداد، والنصر، والتمكين، والهداية في المهتدين، غير ضالين ولا مضلين.

اللهم إن عبادك الذين أمرتهم بالتوحيد يتوسلون إليك بسر قرآنك الكريم الذي يحتفلون اليوم في مشارق الأرض ومغاربها بذكرى تنزيله ووحيه أن تنعم وأنت خير من أنعم وجاد بلم شعتهم وجمع كلمتهم وتوحيد صفوفهم والتأليف بين قلوبهم وتطهير سرائرهم وتمتين عرى الايمان في نفوسهم وكشف بلواهم، وإذهاب الحزن عنهم، فإنك اللهم الملجأ والملاذ، والمفرج عند الملمات الشداد، ربنا اجعلنا من الذين قلت فيهم وقولك الحق : «إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا، تنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا، ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون».

ألقي بالرباط

الخميس 26 رمضان 1387 — 28 دجنبر 1967